من تراب الطريق (٣٥٧)

عبد الرحمن الشرقاوى(*) وأرشيف الذكريات

تحت عنوان أزمة الكلمة بين الولادة العسرة ومخاطر التشويه ، كتبت رسالة إلى الصديق الكبير الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى الذى تحل هذه الأيام ذكرى رحيله عن عالمنا من (٢٢عامًا) ..كانت الرسالة محاولة لتسرية ما أحاطه من ضيق وأحزان لما لحق بحديثه إلى التليفزيون فى عيد الشرطة ـ من مونتاج وتقديم وتأخير غير معانى العبارات ، وأجراها على غير مقصودها ، فكلفنى رحمه الله أن أتخذ الإجراءات القضائية اللازمة ، وقد فعلت .. ومع بدايتها كتبت له هذه الرسالة التى نشرها بصفحته الأدبية «خواطر حرة» ـ فى أهرام ١١/ ٢/ ١٩٨٧ .. جرت كلماتها تقول :

الأخ الصديق الأعز .. تعلم كم كان تعاطفى العميق معك ، حين أتتنى كلماتك الممرورة الحزينة تشكو ما فعله «المونتاج» اللعين بحديثك الذى سُجّل . ثم بُث بالتليفزيون ، بمناسبة عيد الشرطة .. وتعلم أن غضبى لم يقل عن غضبك لما جرى لكلماتك تلك من حذف واقتطاع واجتزاء أخل بمعانيها ، وشوّه مبانيها ، وقلب بعضها إلى عكس مضمونها تمامًا ، فبدا مجملها على عكس ما قصدته بها .. وتلك مصيبة كبيرة لا يستشعر حجم وقعها إلاّ من اتخذ الرأى رسالة ، والكلمة أمانة .. بيد أن من واجبنا ، .

(*) المال١٢/ ١١/ ٢٠٠٩

ومن واجب الآخرين ، أن يدركوا مدى الخسارة الشخصية التى تلحق بمثلك من تحريف كلامك .. وهى فادحة !!

هذا الاجتراء أخف كثيرا من الخسارة العامة التى باتت تلحق بالمجموع من جراء أزمة الكلمة فى زماننا ومعاناتها الممضة بين ظروف الولادة العسرة وبين مخاطر ملاحقتها بالحجب أو التشويه .. فلم يعد يكفى أصحاب الأهازيج والطبول ما يفعلونه ، ولم يعد يرضيهم الكلمة المتجردة لغيرهم حتى وإن أنصفهم بعضها ، طالما أن توجهها كله لم ينصرف إلى المدائح والتبريكات .. وتلك يا أخى الكبير ، نكبة النكبات .. أن تحتار الكلمات الصادقة بين الخنق الذى لا يريد لها ميلادًا وبين قلم المراجع أو مقص المونتاج أو الرقيب الذى لا يدعها وحالها الذى عليه خرجت ، فلا يقبل حتى بوأدها ولا بمواراتها ، ولم يعد يرضيه ـ قلما أو مقصًا ـ إلاّ أن يستبيح العبارة ـ يقدمها للمتلقين على عكس مقصد قائلها أو مبدعها .. هى إذن ليست فقط أزمة عبد الرحمن الشرقاوى ، وإنما هى أزمة الكلمة المخنوقة والرأى المغيب والأمانة الضائعة أو المضيعة .. لذلك فلا ينبغى لنا مهما كانت مرارتنا الشخصية أن نأخذ الأمر من زاوية ذواتنا وكفى ، وإنما هو من زاويته العامة أولى بعنايتنا ، وأحق بجهودنا ، بل وبنضالنا إن لزم الأمر .. إننى لأشعر بالتضاؤل حقًا ، حين أرى قلم شيخنا مصطفى مرعى ، يسترد كل شبابه وحيويته ، رغم العقد التاسع الذى كان من حقه أن يخلد فيه إلى كامل الراحة ، فينهض متوثبا ومحذرًا ليحمى الرأى وأصحابه والكلمة وروادها والصحافة وحريتها .. فيسطر فى عجالة كتابه الرائع «الصحافة بين السلطة والسلطان» .. يذود فيه عن الكلمة الحرة أيًا كانت قنواتها ويحذر من المحاولات الملتوية التى تبتغى

تقنين خنقها وستره وراء واجهات لفظية لا ينخدع بها إلاّ الغافلون ومن قبلوا لأنفسهم عيش الخدر والانخداع .. لم يستيئس الرجل الكبير ، من سبق البرلمان إلى الموافقة من حيث المبدأ على المذهب الذى يخالف مذهبه ، وإنما نهض نهوض الشباب ليبرئ ذمته آملًا فى أن يصل صوته إلى الذين لا يزالون يؤمنون بأن الرجوع إلى الحق ـ خير من التمادى فى الباطل .. يستهل حديثه إليهم وإلينا بأثيرة شاتوبريان : ليس الدستور هو الذى أعطانا الحرية إنما هى حرية الرأى التى أعطتنا الدستور ـ إنهـــا حسنة هذا الزمـان (زمانه) حسنته الكبرى التى لا تقوم بثمن .

إذن .. إن كنت قد لبيت ما طلبتنى إليه ورفعت دعواك إلى القضاء ، حيث يتوالى انضمام الأحرار ..أتلقاهم بكل الحب والترحاب ـ إلاّ أن وجهتنا الأصلية إنما يجب أن تكون إلى هناك .. إلى رحم الكلمات حيث تتلقفها الأصابع الخانقة أو تشوّهها الأيادى العابثة .. وهى لن تبرأ أو تنجو منهم قط ، ما لم نعد تنظيم البيت .. ما لم يتوافر المناخ الذى يحمى الكلمة المكتوبة أو المرئية أو المسموعة من كل أساليب وحيل ومظاهر القمع أو التسييس أو التشويه .... مشكلتنا ومشكلتها الرئيسية ، إنما تكمن هنا .. فى النظام الذى جعل الكلمة ملكًا ـ بالخنق أو بالحجب أو بالمسخ ـ لأصحاب المراكز المهيمنة على أقدار الصفحات على مختلف أشكالها .. مشكلتنا الحقة ، ألاّ ننخدع بالواجهات اللفظية المخاتلة ، كصاحبة الجلالة أو السلطة الرابعة . أن يتحرر «الإعلام» من قيود السلطة . أن ينسلخ التليفزيون والإذاعة من سيطرة الدولة .. أن نعيد النظر فى «رسمية» إعلامنا تحت مسميات لا أخسب أحد يختلف حول ما فيها من تزيين .. وتزييف .. أن تتحرر صحافتنا من القانون الذى يخنقنا تحت ستار

«السلطة الرابعة» .. فماذا يمكن أن تفرز سيطرة الحكومة وبيدها الاختيار والحجب إلاّ قيودًا تتراكم من وراء الأستار والأقنعة لتنتهى بالكلمات إلى ما آلت إليه من إجهاض حتى لم يعد يرضى أصحاب النفوس الضعيفة ، إلاّ أن يشركوا الناس جميعا ـ ناهيك بكبار الكتاب ـ فى معزوفاتهم التى اعتادوها حتى وإن اقتضى الأمر أن يقتطعوا ويجتزئوا من عباراتهم ما شاءوا ليستقيم لهم المعنى المغلوط الذى يريدون !!

لم تعد مهمة صاحب الرأى أن يكابد فقط ليقول ما يريد ، وإنما أن يحميه ويرعاه .. ليصل إلى الناس ما يقول !!

إن الدعوة الحقيقية إذن ، هى تحرير الكلمة من قيودها وإطلاق إسارها من أغلالها .. إن القضية ياسيدى هى قضية الإعلام فى مصر .. كيف يكون ، ولمن .. للحكومة أم للشعب ؟!

هذه يا سيدى هى «القضية» !!!

***

كانت هذه هى رسالتى ، بقى أن أنقل إلى القارئ أن محكمة القاهرة الابتدائية وأيدتها المحكمة الاستئنافية فى الدعوى ١٥١٢/ ٨٧ م.ك جنوب القاهرة . قد قضتا بعد رحيل الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى بقبول دعواه وبإلزام التليفزيون المصرى ووزير الإعلام بصفته بتعويض الأستاذ الشرقاوى بعد ما ثبت تحريف كلامه بالحذف والمونتاج فى حديثه بمناسبة أعياد الشرطة !!!

ما أشبه اليوم بالبارحة !!